رواية المنصورة بين الإبداع والتأريخ

د.محمد أبو الفضل بدران*

مقدمة:

الرواية هي لحظة تأريخ لزمن في ذاكرة المبدع، ولذا فإننا قبل أن نحلل رواية المنصورة ينبغي أن نلقي نظرة تاريخية حولها.

وقد حظيت موقعة المنصورة ١٢٤٩م باهتمام المؤرخين والأدباء إذ ارتبطت في أذهان بعض الأدباء بقصة بطولة الشعب المصري الذي أهمله المؤرخون، وركزوا على دور السلاطين والمماليك، كما أنها ارتبطت بدور شجرة الدر التي قادت زمام الأمر - على خلاف في حجم دورها بين الأدباء. فقد كتب جورجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) رواية شجرة الدر في الفترة من ١٩١٣ إلى ١٩١٤[(١)].

وفي تناوله نجد أن معظم شخصيات الرواية تاريخية إلا أنه لا يأخذ بأسباب التاريخ، وعلى الرغم من أن العنوان شجرة الدر إلا أنه لا يركز على شجرة الدر، وإنما يركز على شخصية بيبرس، ولم يتناول معركة المنصورة، لأن أحداث هذه الرواية بدأت بعدها.

---

* كلية الآداب، جامعة بون - ألمانيا

(١) جورجي زيدان: ((شجرة الدر)) (مؤلفات جورجي زيدان الكاملة) المجلد الثالث ص٥١٣ وما بعدها، ط. دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.

ثم كتب محمد سعيد العريان (١٩٠٥-١٩٦٤) روايته ((شجرة الدر)) في ١٩٤٧[١]، التي حاول أن يدافع فيها عن شجرة الدر، وقد تميز عن الآخرين في تناوله لشخصية فخر الدين، الذي عده من آخر النبلاء الأيوبيين، فيذكر ((كان الأمير فخر الدين هو كل من بقي من ذوي الحسب الرفيع من أمراء دولة بني أيوب في مصر... وكان... أثيراً لدى الملك الصالح، إذ كان أخاً بالرضاع لأبيه الملك الكامل))[٢].

وتجيء بعد ذلك رواية الدكتور محمد مصطفى هدارة ((المنصورة، قصة البطولة العربية، وهزيمة لويس التاسع)) التي نشرت في ١٩٦١، وسأتناولها بالتحليل والنقد، وربما كانت أول رواية تعالج موقعة المنصورة، إذ إنها حصلت على جائزة الرواية التاريخية في ١٩٦٠، على نحو ما سأوضح فيما بعد، أي أنها كتبت قبل ١٩٦١، وفي العام ذاته ١٩٦١ نشر الدكتور نجيب الكيلاني روايته ((اليوم الموعود))[٣] الذي حاول فيها أن يحلل الشخصيات من أعماق ذواتها، ورغم وجود تشابه كبير في بعض الشخصيات بين روايتي ((المنصورة)) و((اليوم الموعود)) كما في شخصية حمدان وعدنان كرمزين للشعب العربي، إلا أن اختلافاً واضحاً بينهما في تصوير دور شجرة الدر في المعركة، إذ جاء خافتاً لدى الدكتور هدارة، في حين أنه جاء قوياً لدى الدكتور الكيلاني، الذي رأى علاقة

(١) محمد سعيد العريان: شجرة الدر، قصة تاريخية، ط، دار المعارف، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٨١م.

(٢) السابق ص٨١.

(٣) الدكتور نجيب الكيلاني: اليوم الموعود، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧.

حب عذري تربط بين فخر الدين وشجرة الدر، ولكن هذا لا يمنع من اعتماد نجيب الكيلاني على رواية المنصورة، وأخذ البنائية والشخصيات بل المقدمة بشكل واضح.

وتوالت بعد ذلك الروايات التي تناولت موقعة المنصورة، فقد كتب عبد الرحيم عجاج روايته ((شيء نسيه البشر)) ١٩٧٢[١]، الذي ركز فيها على تصوير المعركة، وأعطى دوراً كبيراً للبهاء زهير وابن مطروح.

وفي رواية ((أضلاع الصحراء)) لإدوار الخراط[٢] نرى استعداد مصر للمعركة، إلا أنه حاول أن يقلل من إيمان الفرنسيين بجدوى المعركة، وجاء وصفه للمعركة وصفاً فنياً امتاز بالدقة.

وعند محمد كمال في روايته ((هزيمة ملك، رواية تاريخية))[٣]، نرى أثر رواية الدكتور هدارة ((المنصورة)) واضحاً، وهذا ما نجده عند معظم من تناول موقعة المنصورة، فكل منهم يتخذ شخصية ترمز للشعب المصري، والمحبوبة ترمز للأرض، فعلى سبيل المثال جعل محمد كامل محمد الأمير فخر الدين يقوم بإعداد الفدائيين لقتال الفرنسيين، وهي فكرة مستوحاة من قيام حمدان ((المنصورة)) بإعداد شباب قرية ((نوسا)) لمقاتلة الفرنسيين، وغير ذلك كثير.

(١) عبد الرحيم عجاج: شيء نسيه البشر، دار الهلال، القاهرة، أكتوبر ١٩٧٢م.

(٢) إدوار الخراط: أضلاع الصحراء، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) محمد كمال محمد: هزيمة ملك، رواية تاريخية، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.

وأما رواية عبد السلام العشري: ((شجرة الدر))[١] فهي نسخة مشوهة من رواية ((المنصورة)) إذ إنه لم يعرف فن الرواية، وفي روايته العديد من السقطات الفنية في بنيانها واعتمادها على اللغة الخطابية التي جعلت النص مترهلاً.

كما كتب علي أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩) مسرحية ((دار ابن لقمان)).

ولقد لفت نظري مسمى ((شجرة الدر)) في الروايات حيث إن الثابت أن اسمها شجر الدر وربما جارى الكتاب جورجي زيدان في روايته التي أطلق عليها ((شجرة الدر)).

كذلك فإن هنالك اختلافاً حول الحملة السابعة: هل هي الحملة السادسة أو السابعة؟ إذ إن معظم المؤرخين الأوروبيين يطلقون على هذه الحملة (١٢٤٨-١٢٥٤) الحملة السادسة حيث يتناسون الحملة الخامسة (١٢١٧-١٢٢١) فقد ذكر في dtv Lexikon ((الحملة السادسة))[٢] وبهذا نص Mayers Grosses Taschenlexikon[٣].

وقد اهتم المؤرخون العرب بهذه الموقعة، وجاءت آراؤهم حولها لتوحي بمدى أهميتها، وهذا ما نراه في كتابات المؤرخين حول هذا العصر، ومن أهمهم ابن

(١) عبد السلام العشري: شجرة الدر، ط. نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) dtv Lexikon, B.10 Munchen, 1971.

(٣) Maryes Grosses Taschenlexikon, Maryes Lexikonverlag, Wien Zurich, B. 12. S. 216-217.

إياس والمقريزي وابن واصل والعيني وأبو المحاسن وابن أيبك الدواداري وسبط ابن الجوزي وغيرهم.

كما حظيت بكتابات المؤرخين الأوروبيين، ولعل أهمهم المؤرخ الفرنسي والقائد الصليبي في الحملة ذاتها Johann von Joinville كما اهتم المؤرخ المستشرق francesco Gabrieli بالمصادر والمراجع العربية التي تناولت الحروب الصليبية، وقام بترجمتها ونشرها في كتاب Die Kreuzzuege aus Arabischer Sicht[١] ((الحروب الصليبية)) من وجهة نظر (منظور) العرب ((الذي رأى أهمية أن يوضح أمام الأجيال الأوروبية حقيقة الحروب الصليبية وكيف نظر إليها العرب)) حتى ينظروا إليها من وجهة نظر أخرى بعيون وعقول الأعداء المعاصرين آنذاك.

❁ ❁ ❁

مدخل

((وما هي غير ساعات قليلة حتى لاحت تباشير الصباح تحمل للفريقين نذير بدء القتال والاحتراب في سبيل غاية يؤمن بها كل فريق، ويجود بنفسه دفاعاً عنها))[٢].

---

(١) Francesco Gabrieli Die Kreuzzuege aus arabisher Sich, aus den Arabischen Quellen Deutsher Taschenbuch Verlag Muenchen 1975.

(٢) محمد مصطفى هدارة: (دكتور): المنصورة، قصة البطولة العربية، وهزيمة لويس التاسع ص١٨٦ الناشر مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٦١م، وقد أعيد نشرها في دار المعارف ودار الفكر العربي.

ربما تكون هذه الفقرة مدخلاً نحو رواية ((المنصورة)) قصة البطولة العربية وهزيمة لويس التاسع ((للكاتب محمد مصطفى هدارة))، إذ إن هذه الرواية ربما تعد أول رواية تناولت موقعة ٦٤٧هـ-١٢٤٩م واستمرت أحد عشر شهراً وتسعة أيام حتى ٦٤٨هـ-١٢٥٠م.

وقد دارت بين الصليبيين في حملتهم السابعة بقيادة الملك لويس التاسع (١٢١٥-١٢٧٠) ملك فرنسا وبين المعسكر المصري بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٠٧-١٢٤٩)، ثم المعظم طوران شاه (١٢٤٩)، ثم شجرة الدر (١٢٤٩)، التي قتلت في (١٢٥٧) مع مجموعات متصارعة من المماليك وبقية الشعب المصري، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للمعسكر الصليبي، وأسر الملك لويس التاسع في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولقد وفق الدكتور في توضيح جانبي المعركة، وحاول - قدر استطاعته- أن يكون محايداً في تصوير المعركة، التي يرى كل فريق أنها غاية يؤمن بها، ويجود بنفسه دفاعاً عنها، ولذا فقد استوحى التاريخ، وسار في ركبه إلا أنه حاول أن يتخلص من قيد المؤرخ؛ ليدخل في دور المبدع الذي أعطى الرواية أبعاداً، خلصت الرواية من نمطية سرد الحديث التاريخي، لنرى تشكيل الحدث الإبداعي الذي يجلي الحدث التاريخي، ولا شك أن رواية كهذه تتناول موقعة مشهورة في التاريخ العالمي، تجعل المؤلف عاجزاً عن صياغة حدث تشويقي للقارئ، إذ إن الحدث بنهايته معروف، وهذا يضع على الكاتب عبء البحث عن حدث آخر مواز للحدث الأول الواضح، يحاول أن يقدمه بشكل إبداعي مجهول للقارئ، في موازاة الحدث المعلوم، وهذا ما صنعه الكاتب في تشخيص شخصية حمدان وفاطمة في صراع مشابه للصراع

الحربي بين الصليبيين والمصريين، إذ جعله صراعاً بينهما كرمز للحب والأرض بين الممثل في المماليك والممثل في الفرنسيين.

أولاً: تشخيص الشخصيات التاريخية

في الرواية التاريخية يمتلك الكاتب شخصيات تاريخية جاهزة، رسمت ملامحها من خلال المؤرخين، وإذا كان المؤرخون ينقسمون فيما بينهم تجاه بعض الشخصيات، فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة لدى المبدعين، لذا فإن على المبدع أن ينحت هذه الشخصيات المتوارثة، حتى تتلاءم روايته، وتبدو الأحداث أكثر تسلسلاً وتمنطقاً.

وقد جاءت تلك الشخصيات على النحو التالي:

١- الحكام

أ- الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك لويس:

تكاد تكون صورة الملك الصالح نجم الدين أيوب واضحة من خلال ما حكاه الذهبي: ((كان الملك الصالح نجم الدين عزيز النفس، أبِيّهَا، عفيفاً، حَيِيّاً، طاهر اللسان والذيل، لا يرى الهزلَ ولا العبثَ، وقوراً، كثير الصمت))[١].

ولا تختلف صورته في الرواية كثيراً عن هذا الوصف، وإن كانت زمنية الرواية تبدأ من مرضه الأخير الذي لا يطول وتنتهي بموته حيث ((توفي سنة سبع وأربعين وست مئة بقصر المنصورة مرابطاً فأخفوا موته))[٢].

---

(١) الذهبي: (الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت٧٤٨هـ-١٣٧٤م). سير أعلام النبلاء ج٢٣ ص١٩١ تحقيق د. بشار عواد معروف، ود. محيي هلال السرحان، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) السابق ص١٩٢.

وقد رسم الكاتب شخصية هذا الملك بما يوحي إيمانه بالجهاد في سبيل الله، وإيمانه بهذا الهدف لدرجة أنه يبكي لعدم استطاعته الجهاد ((ومسح دموعه وهو ينظر إلى من حوله، ثم قال: عذراً أبنائي عذراً.. فقد نسيت نفسي، ولم أذكر إلا أني محارب مغلول السيف، فارس كبا به جواده، حسام تفللت مضاربه، كيف تأتي هذه الحرب المقدسة، وحُقّ عليَّ الجهاد، فلا أنال شرف الاشتراك فيها، والاستشهاد دفاعاً عن ديني وعن وطني))[١].

بل إنه عندما كان مريضاً في دمشق لا يتحمل أن يرقب المعركة من هناك، لكنه يصر على المجيء إلى مصر ((في محفة تجرها أربعة جياد، لعدم استطاعته ركوب حصانه لاشتداد المرض عليه))[٢].

وهذا ما يوحي بأن السلطان يرى أن واجبه يحتم عليه قيادة المعركة. وقد رسم الكاتب شخصية الملك لويس التاسع بصفات تكاد تشبه صفات السلطان، فهو متدين في طبعه، يؤدي الطقوس الدينية المسيحية كل مساء، وفي مرضه يتمتم في حرارة وحماسة ((إني أنذر للسيد المسيح أني سوف أقود جيشاً لأحارب به العرب والمسلمين، لأستنقذ من أيديهم الأرض المقدسة وأحمي قبر يسوع المخلص، وسأبذل في تلك الحرب جهدي ومالي ودمي))[٣].

---

(١) محمد مصطفى هدارة: (دكتور) المنصورة ص١٣٩-١٤٠، كما أننا نجد المعنى ذاته عند عبد السلام العشري: شجرة الدر ص١٠٠ ويتكرر في الروايات الأخرى.

(٢) السابق ص١١٠.

(٣) السابق ص٥٢-٥٣، وقد ذكر الدكتور قاسم عبده قاسم: ((أنه اشتهر بعدائه المميت لكل ما هو غير مسيحي بدرجة جعلته من أشهر القديسين في السجل الرسمي للكنيسة الكاثوليكية))، د. قاسم عبده قاسم ود. أحمد إبراهيم الهواري: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ص٥٣، ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

إن النظرة الثنائية المحايدة -إلى حد ما- من الكاتب للحاكمين اللذين يرى كل منهما أنه على صواب، وأن الحق بجانبه، وإن كان الحق بجانب أحدهما، هذه النظرة تجعلنا نفهم لماذا ذكر على لسان الأمير فخر الدين في تساؤل يحمل سخرية من ((أنهم -يقصد الصليبيين- يتجرون باسم الدين، ويقتلون ويسفكون باسم الدين! وهل القبر المقدس موجود في أرض مصر، في دمياط أو في القاهرة أو في الإسكندرية؟))[١].

ب- علاقة المرأة برجال الحكم

إذا كان الملك لويس التاسع قدَّم كل ما لديه من أجل هذه المعركة، فإن السلطان نجم الدين يفعل أكثر مما يستطيع، تبدو هنا رؤية الكاتب نحو الثنائية التشابهية في الشخصيات، حتى إن علاقة الملك الصالح نجم الدين بزوجته شجرة الدر - التي هي في أصلها جاريته الأثيرة ((وقد ارتدت ثوباً أسود اللون، مرصعاً بالجواهر الكريمة، ووضعت في أذنيها قرطاً من اللؤلؤ الثمين، وزينت نحرها بعقد من الألماس ذي حبات كبيرة، وكانت شجرة الدر ببشرتها البيضاء الناعمة أشد تألقاً في ثوبها الأسود، جذابة إلى أقصى حد، وبدا بريق أخّاذ في عينيها السوداوين الواسعتين، وتهلل وجه السلطان حين رآها، وحاول النهوض..

- اجلسي يا شجرة الدر، فلعل وجودك يخفف عني..))[٢] إن علاقة الحب بين الملك الصالح وشجرة الدر التي لم يكن له سواها إلا زوجة واحدة

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١٠٣.

(٢) السابق ص١٧٠-١٧١.

أخرى فقد ذكر الذهبي: ((ثم لم يكن عنده في الآخر سوى زوجتين))[١] تشبه العلاقة بين الملك لويس التاسع وزوجته الملكة مرجريت، التي تدخل عليه في مرضه ((فوضعت يدها على خده))[٢] ((نهض لويس من مقعده، وتناول يدها وقبلها))[٣]، وربما كانت عادة تقبيل الأزواج ليد زوجاتهم عادة أوروبية إلا أن الكاتب ينقل لنا العادة الشرقية فعندما دخلت شجرة الدر على السلطان نجم الدين أيوب ((أخذت يده بين يديها وقبلتها في حنان))[٤].

وإذا ما كانت شجرة الدر تقوم بأمر المملكة بعد وفاة زوجها الملك الصالح، وتدير -من بعده- دفة الحكم، فإن الملكة مرجريت تقوم بالدور ذاته عندما يخلفها زوجها في دمياط، ثم تصبح قائدة بعد أسر زوجها، تعمل على إنقاذ ما تبقى من جنود صليبيين، في دور يكاد يكون أفضل مما رسمه الكاتب لشجرة الدر التي جاء دورها باهتاً، وربما قصد الكاتب ذلك حتى يجلي دور الشعب.

وربما كانت نهاية الملك الصالح بالموت في موازاة نهاية الملك لويس بالأسر، ما يجعلنا نتحقق من النظرة الثنائية التي نظر بها إلى الحاكمين.

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٣ ص١٩٢.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١١٧.

(٣) السابق.

(٤) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١٧١.

ولقد عقد الكاتب موازنة بين المرأة في المعسكر الإسلامي، والمرأة في المعسكر الصليبي، من خلال شخصية فاطمة عاشقة حمدان التي تتمنى أن تقترن به، لكن سيدها الأمير فخر الدين اللذين تربيا في قصره يود أن يغتصبها، لكنها تدافع عن شرفها وعن حبها في إخلاص ووفاء، بينما في المقابل نرى أن إيزابيل زوجة الكونت درومنت الذي يحارب ضد المسلمين على مشارف المنصورة، تظل (إيزابيل) في دمياط، تختلي بأحد الجنود في غياب زوجها وتتمتم:

- ((واها لك يا عزيزي فيليب، لقد قضيت معك وقتاً لطيفاً، وها قد مضى من الليل أكثره، وأخشى أن يكتشف أمرنا، ونحن نسير معاً، وقال صاحبها وهو يحيط خصرها بذراعه:

- وماذا في هذا يا عزيزتي؟ ألستِ تحبينني؟ ألست أعبدك؟ ماذا نخشى إذن؟

- نخشى كلام الناس يا حبيبي... ماذا يقولون وهم يرونني معك بينما زوجي منغمس في أتون المعركة؟

- فليقولوا ما يشاؤون يا إيزابيل.. إن زوجك الكونت درومنت لا يستحق قلامة ظفرك..

- صدقت يا فيليب.. صدقت))[1].

شتان بين هذه المرأة تخون زوجها المحارب، وبين هذه الفتاة المصرية التي قاومت فخر الدين بكل جبروته الذي بدا - كما تحكي فاطمة:

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص٢٠٠-٢٠١.

((وبدأ يعتصرني بذراعيه مرة أخرى، وأنا أضرب صدره بكلتا يدي وأصيح، ولما وجد أن مقاومتي له قد اشتدت وأن صراخي سوف يوقظ من بالقصر وخاصة حريمه نهض وانصرف))[١].

وعندما تقع فاطمة في الأسر يجعل الكاتب حبيبها حمدان يبحث عن فتاة من المعسكر الصليبي حتى يضغط بها لاسترداد محبوبته فيأسر إيزابيل الخائنة في مقابل فاطمة الشريفة.

إلا أن حيادية الدكتور هدارة ((لا تجعله يلقى الخيانة)) لدى الصليبيين فقط، وإنما نجد أثر الخيانة في المعسكر المصري أيضاً، فتارة يذكر ((بعض العيون)) وأن أحد المماليك قد وشى بالخطة العسكرية للمعسكر الصليبي[٢] وأن أحد البدو الجواسيس قد قام بدور مماثل[٣]، وأن بعض الأعراب قد خانوا أيضاً[٤]، وهذا يوحي أن حرب الخيانة تقتصر عند بعض أفراد المعسكر المصري طمعاً في المال.

بينما ينسب بعض الكتاب المعاصرين الخيانة لأحد البدو[٥] وعند باحث آخر ((بعض منافقي أهل الإسلام)) نقل عن المقريزي[٦] بينما يذكر المؤرخ Joinville

(١) السابق ص٦٧.

(٢) السابق ص٢١٠-٢١١.

(٣) السابق ص١٩٠.

(٤) السابق ص٢٣٩.

(٥) محمد سعيد العريان ود. جمال الدين الشيال: قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص٦٣، ط. دار المعارف، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

(٦) د. قاسم عبده قاسم ود. أحمد إبراهيم الهواري: ((الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ص٦٢ ويذكر د. قاسم عبده قاسم: وذكرت المصادر العربية أنه مسيحي)) ص٥٧.

أنه أحد البدو الذي تقاضى مبلغاً من المال قبل أن يبوح لهم ببعض الأسرار التي ساعدتهم في عبور النهر والهجوم على المعسكر الإسلامي[١].

٢- سلطة رجال الكنيسة في موازاة سلطة رجال المماليك

أ- رجال الكنيسة

يكاد معظم مؤرخي الحروب الصليبية يذكرون بكل تقدير وشجاعة فرقة الفرسان الصليبية، أو فرسان المعبد التي حاربت بكل شجاعة، ولذا لا ينسى الدكتور هدارة أن يثبت شجاعة العدو إذ إن شجاعة العدو المهزوم تعكس قوة المنتصر، ولعل وصفه لما أحدثته فرقة الفرسان الصليبية في معسكر المسلمين يوحي بذلك[٢].

لكن ذلك لا ينسينا حقيقة ما يمارسه البابا أنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤) من ضغوط ونفوذ على الناس، حتى يجبرهم على الذهاب إلى المعركة عائشاً -هو نفسه- في النعيم والرفاهية، بل يصل جبروته إلى حد عزل الملك فريدريش الثاني friedrich II (١٢١٢-١٢٥٠) لأنه تجرأ على الكنيسة ملوحاً بفصله وعزله لكل من يخالفه من قياصرة أوروبا وملوكها وأمرائها بل شعوبها.

هذه السلطة الدينية المسيحية جعلت من نفسها السلطة السياسية في أوروبا في القرون الوسطى، وورطت أوروبا كلها في الحروب الصليبية، ولذا فقد حرص

---

(١) Johann von Joinville: Geshichte des h1 Ludwigs, s. 79.

(٢) محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١٩٤ وما بعدها.

المؤلف على أن يوضح لنا ظلم هؤلاء واستغلالهم الدين في تحقيق طموحاتهم الشخصية، وتعصبهم الأعمى لكل ما هو مسيحي، فالجنود مخدعون ويردد شاتيليون على مسامع الملك لويس: ((الحياة تهون في سبيل الله والمسيحية يا مولاي))[1].

وإذا كان هؤلاء المخادَعون يقاتلون في سبيل المسيحية، فإن رهبانها يتاجرون بها، ولعل في الحوار الأخير الذي أورده الكاتب ما يوحي بذلك، إذ اشترط المسلمون دفع مبلغ من المال مقابل إطلاق سراح ورحيل الملك لويس ومن تبقى معه، ولما حاولت الملكة مارجريت جمع المال، وجدت لديها نقصاً نحو ثلاثين ألف قطعة لا بد من توفرها وإلا ستخرق المعاهدة.

((ثم نظر (الملك لويس) إلى النبلاء من حوله، وقال لهم:

- أرجو أن تعدوا هذا المال على الفور.

ونظر كل إلى صاحبه في استنكار ثم قالوا بصوت واحد:

- ومن أين لنا هذا المال، وقد أخذت الملكة كل ما عندنا؟

وأسقط في يد الملك، وداخله الاضطراب، وعندئذ اقترب منه الكونت جوانفيل وقال:

- يا مولاي.. إن خزانة فرسان المعبد عامرة بالمال. وعندئذ صاح الملك قائلاً:

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص٢٣٣.

- علي بالأب ستيفن دي أوتريكورت.

ومرت فترة جاء بعدها الأب ستيفن.. فابتدره الملك قائلاً:

- أرجو أن تحضر أيها الأب المبجل ثلاثين ألف قطعة ذهبية من خـــزانتكم العامرة.

وقطب الأب جبينه وقال:

- إن خزانتنا يا مولاي خاوية على عروشها، فقد أخذت الملكة كـــل مـــا نملك وقفز الكونت جوانفيل من مكانه وصاح قائلاً:

هذا كذب أيها الأب، وسأثبت أنه كذب.

وأسرع الكونت بالنزول من السفينة ليصعد سفينة أخـــرى قريبـــة منها، وهي سفينة فرسان المعبد، وانتزع بلطة من أحد الجنود الـــواقفين وانهال بها على الخزانة بغرفة الربان فانفتحت الخزانة وانهالت منها أكوام الذهب))[1].

وهذا يوحي بمدى غنى هؤلاء القساوسة من جانب، ومن جانب آخر يعطي لنا دليلاً على ازدواجية شخصياتهم وأنهم يخفون تحت المسوح الزاهدة نفوساً تميل إلى الغنى والجبروت.

بل إن أم الملك لويس نفسه تحذر ابنها من قرار البابا بتتويجه قائداً للحملـــة، إذ تقول له:

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص٢٦٣-٢٦٤.

((واجبك هنا في فرنسا لا في مصر، ولا في غيرها من أرض العرب كما يزين لك البابا ورجال الكنيسة، وإن لهم مصلحة دنيوية يا بني في تلك الحروب التي ينهى عنها دين المسيح))[١].

ولقد حاول الكاتب أن يسبر أغوار شخصياته، ولا يكتفي بوصفها الظاهري وربما من خلال حوار جاك، وهو أحد الجنود، مع زميل له ما يوحي لنا أن هذه الحرب لم يكن الشعب الأوروبي راغباً فيها، وإنما هي الحرب التي يخشاها الجميع، وقد استطاع من خلال هذا الحوار أن يصور لنا الجشع والطمع الذي يوده البابا لنفسه على حساب الضحايا ((يا إلهي! ألا تنتهي هذه الحروب التي يلقوننا في أتونها، وتطوح بنا في أرض بعيدة لا مصلحة لنا فيها قط؟!.

- إنه أمر البابا يا جاك، وهل تظن أن الملك يستطيع أن يعصي له أمراً؟

- البابا... البابا... ماله ولنا! إنه يتدخل في كل شيء.. حتى في نهايتنا ومماتنا.. فهو يأمر بنا إلى الفردوس أو إلى الجحيم!

- صدقت يا أخي.. إنه لا يحس ما نحس به نحن أبناء الشعب من نقص الأقوات وغلاء الأسعار، وهذا إلى جانب سقوطنا صرعى في ميادين القتال، غرباء تنكرنا الأرض ولا ترضى عنا السماء.

- وكل ما يجود به البابا بضعة آلاف أو ملايين يخرجها من خزانته العامرة، ويلقي بها إلى ملوكنا، وهو آمن على نفسه، غارق في رفاهيته))[٢] من هذا الحوار نستطيع أن نلمس الحس الشعبي بما يضمره من حقد وحسد

---

(١) السابق ص٥١.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص٢١١-٢١٢.

وثورة ضد البابا ورجال الكنيسة، الذين يجمعون ماله ويتاجرون بالشعب في الدنيا والآخرة.

ويتبنى ألبرشت نوت Albrecht Noth رؤية مفادها أن النظرة المسيحية لمفهوم الجهاد في أثناء الحروب الصليبية، لا تختلف عن النظرة الإسلامية لمفهوم الجهاد، لدرجة أنه يرى أن البابا والكنيسة قد استخدموا المفاهيم القرآنية في التأثير على الناس ونسي Noth أن مفهوم الجهاد الإسلامي يعتمد على الدفاع عن النفس والدعوة إلى الدين الحق، وأن المغيرين لم يكونوا مسلمين وإنما كانوا صليبيين قدموا إليهم في عقر ديارهم، في دمياط والمنصورة.

ويعقب نوت Noth على نظريته ((إن هناك تشابهين بين دعاية المقاتلين المتدينين من خلال النبي الإسلامي، والدعاية الصليبية المسيحية من خلال المسيح المقدس، فهو تشابه يؤدي إلى أنه من الممكن حدوث نظام فكري متشابه في الجهاد الإسلامي والجهاد المسيحي))[١]. فلم يكن العسكر الإسلامي مغيراً بل مغاراً عليه، لذا وجب عليه الدفاع وإلا فقد وطنه، وربما كانت هنالك مصالح لدى بعض المقاتلين في كل من الفريقين على نحو ما رأينا لدى رجال الكنيسة، وعلى نحو ما سنرى لدى المماليك، إذ إن كل فريق منهما يدافع عن مصالحه الذاتية، وعن مكتسباته التي اكتسبها، لأن فقدها يعني -بالنسبة له- نهايته، وربما هنالك أسباب كثيرة حدت بمعظم المؤرخين ألا يتطرقوا إلى هذه الرؤية حيث إن كلاً من الفريقين -أعني رجال الكنيسة والمماليك- يتمسح بأثواب الدين ليضفي على وجوده قدسية ومهابة.

---

(١) Albrecht Nothh Heiliger King und Heiliger Kampt in islam und Christentum, Beitrag zur Vorgeschichte und Geschichte der Kreuz-ziige Ludrig Roehrsheid Verlag Bonn 1966, s. 1946.

ب- رجال المماليك

في المقابل يبدو المماليك المجلوبون من بلاد أرمينية وتركية وشرق آسيا وغير ذلك من جنسيات لا تعد ولا تحصى، هم القوة التي دافعت عن مصر، لا حباً في مصر وشعبها، ولا دفاعاً عن الدين الإسلامي بقدر ما هو دفاع عن مصالحهم الشخصية، ومكانتهم السياسية والاجتماعية.

و لم يكن المماليك وحدهم بل جموع الشعب الذي خرج يدافع عن دينه وعن أرضه، وقد احتار الكاتب في معالجته للمماليك هل هم عرب؟ هل هم مصريون؟ هل اكتسبوا العروبة والمصرية باللغة... أو أن الإسلام قد منحهم جنسية إسلامية أقوى من التفرقة بين الجنسيات الأخرى، ولعل مقولة سيف الدين الدمشقي وتساؤله يطرحان تساؤل الكاتب نفسه حول ماهية المماليك؟

((إنهم - أي المماليك - ليضيقون علينا الخناق نحن العرب في سورية ولكن ينبغي ألا نسكت على ذلك، فهذه ديارنا ونحن أولى بالدفاع عنها، حقيقة أن المماليك صاروا جزءاً منا، وهم متحمسون للدفاع عن شرف العروبة وكرامة الإسلام، ولكننا لا نحب منهم أن يستأثروا بهذا الشرف وحدهم))[1].

إن علاقة الكاتب بشخصياته المملوكية علاقة متأرجحة، فإذا كان فخر الدين تكاد تجمع المصادر التاريخية على شعبيته وسيرته الطيبة، فإن الدكتور هدارة يصفه بالظلم الذي يجعله يتخذ من الفلاحين عبيداً، هم أشبه بالأغنام التي لا يترفق بها، بل إنه يجبرهم على العمل لديه دون مقابل يذكر، ويوجعهم ضرباً وركلاً إذا عجزوا عن سداد الضرائب الباهظة التي لا تنتهي، ثم ما يلبث أن

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١٩-٢٠.

يختطف أمام عيونهم أبناءهم وفاء لدين لا يستحق دفعه، هذا الظالم الذي اختطف حمدان وهو طفل من أمام عيون أبيه وأسرته، يحمل له حمدان حباً وكراهية.. هذه العلاقة تنمو باتجاه الكره حينما يحاول فخر الدين اغتصاب محبوبة حمدان ((فاطمة))، وتنجو من بين مخالبه لتخبر حبيبها الذي يقسم على الانتقام، إلا أنه يؤجل هذا الانتقام إلى ما بعد المعركة، وربما كان المؤلف يعتمد في تشخيص الأمير فخر الدين بهذا الشكل على شيئين:

أولهما: كونه مملوكاً، إذ لا ينسى ما كاله المماليك للمصريين من هوانٍ وذل، ولذا فليس فخر الدين خلواً من ذلك، كما أن قوة المماليك هي التي مكنت لهم -دون أصحاب البلد الحقيقيين- أسباب القيادة، ولم يسيروا سيراً حسناً بل أذاقوا الشعب المرار.

ثانيهما: تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن انسحاب قائد الجيوش فخر الدين من دمياط دون مقاومة، وتركها هدراً وغنيمة سائبة للصليبيين ما يزال لغزاً وبقيت علامة الاستفهام حول أسباب هذه اللحظة الانسحابية التي لم تكن بأي حال من الأحول أسباباً عسكرية، فهي إما أن تكون بفعل خيانة فخر الدين، وأنه باع دمياط -سراً- للصليبيين، وإما أن يكون الملك فخر الدين قد ظن أن الملك الصالح أيوب قد مات، فأراد أن يعود مسرعاً ليمسك بالحكم ويستأثر به دون غيره من المماليك، وكلا الاحتمالين لا يبرئه تاريخياً من تحمل مسؤولية الانسحاب.

ربما كان ذلك ما دعا الكاتب كي يجعل شخصية فخر الدين شخصية مكروهة لدى القارئ، إنه لا يعرف العدل بل هو شره، ظالم، أناني، وهذه العلاقة التي ارتكز المؤلف عليها بين حمدان وفخر الدين، هي العلاقة بين الشعب ممثلاً في حمدان، وبين المماليك ممثلاً في فخر الدين، وقد تبلورت المعركة عن قوة المماليك البحرية الذين سرعان ما قتلوا السلطان توران شاه، ثم قتلوا شجرة الدر، ليستأثروا بالحكم في دورات انقلابية دموية متكررة.

ويذكر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أنه: ((قد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الملك الصالح أيوب ازدياداً خطيراً، بعد أن انفض عن الصالح أعوانه من الأكراد وغيرهم، ولم يلبث أن استغل المماليك البحرية سطوتهم بالعبث في مصالح البلاد والعباد، فأكثروا من الاعتداءات على أموال الناس وأرزاقهم))[1] أي أن ظلم المماليك لم يكن تالياً للمعركة وإنما كما صوره الدكتور هدارة ظلم مرتبط بنشأتهم واستئثارهم بالحكم.

وربما وضح توازن المصالح في المعسكرين بين رجال الكنيسة والمماليك وهذا ما ودَّ الكاتب أن يجلوه لأنه يؤرخ مبدعاً هذا الحدث.

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١١. ط. مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٤م.

٣- المؤرخون والأدباء

أ- جوانفيل Joinville

كاتب الرواية التاريخية يتعامل مع شخصيات مؤرخة، وشخصيات مبدعة في عصرها، وهي مرتبطة - غالباً- بالقصر، وقد نجد قصيدة تؤرخ لعصر، وقد نجد كتاباً لمؤرخ ينقل شهادته على العصر، لكن الذي نفتقده من معظم كتب المؤرخين هو أنهم يهتمون بالحاكم والحاشية متناسين الشعب، مما حدا بالدكتور أحمد إبراهيم الهواري أن يقول: ((إن المؤرخين القدماء قد قاموا بعملية اختزال تاريخي للشخصيات العادية على نحو ما ذكر «أبو المحاسن)) عندما عرض لأحدهم في تاريخه بقوله: وقد أضربنا عن شرح ما حدث له فإنه لم يكن من أعيان الناس فتشكر أفعاله أو تذم))[1].

وغريب رأي ((أبي المحاسن)) هذا، لكنه الواقع، بيد أننا نعالج هنا موقف الروائيين من المؤرخين أنفسهم، هل تجاهلوهم وأضربوا عن ذكرهم، أو أنهم أنصفوهم، الحقيقة أننا نرى أن الدكتور هدارة قد أعطى للمؤرخ الفرنسي Joinville دوراً كبيراً في الرواية، وأوضح سبب ذلك في المقدمة حيث قال: ((وقد نقبت في المكتبة التاريخية عن أحداث هذه الفترة بدقة وعمق، واهتممت بأدق التفاصيل وأصغر الجزئيات، وعنيت بالاطلاع على آراء كل فريق، فإلى جانب المؤرخين العرب، اهتممت بمذكرات جوانفيل مؤرخ الحملة الفرنسية،

---

(١) د. أحمد إبراهيم الهواري د. قاسم عبده قاسم: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص٦٨ نقلاً عن ((أبي المحاسن)): ((حوادث الدهور)) نشر وليام بوير، (كاليفورنيا، ١٩٣٠) ج٢ ص٢٤٤.

والصديق الشخصي للملك لويس نفسه، كما اهتممت بالكتب الأوروبية التي درست تاريخ هذه الحملة الصليبية السابعة))[١].

وهذا الاهتمام بالمؤرخين أثرى العمل الإبداعي، إذ ساعد على نقل أحداث التاريخ من وجهة نظر شهودها الحقيقيين الذين رأوها رأي العين.

وليس من رأى كمن سمع أو قرأ، وقد أعطى دوراً لجوانفيل ضمن شخصيات الرواية، وجاء متسقاً مع مذكراته التي اهتم بها، واهتم بها تابعوه أيضاً، فلا تكاد تخلو رواية تعالج موقعة المنصورة دون ذكر Joinville بل إن الدكتور هدارة يجعله مقرباً من الملك، يحضر كل الاجتماعات العسكرية بل تصل التقنية الروائية إلى حد أنه يمتلك فاطمة محبوبة حمدان التي أسرت من قبل الصليبيين.

ويتعامل الملك لويس التاسع مع جوانفيل بكل تقدير واحترام ((لتستعد يا عزيزي جوانفيل لكتابة أحداث هذه الحملة، أو على الأصح أحداث هذا الانتصار الضخم الذي سوف تحققه الصليبية، وتغير به وجه التاريخ... فرد جوانفيل قائلاً:

- إن قلمي وسيفي كليهما في خدمة مولاي وقال: بورك فيك يا عزيزي.. بورك فيك))[٢].

وقد قام Johann von Joinville بكتابة مذكراته حول هذه الحملة، ونشرت في كتاب أسماه[١] Geschicht des hi Ludwing ((سيرة القديس

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة: ((بين يدي القارئ)) في ((المنصورة)) ص٥-٦.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١٨٢-١٨٣.

لويس)) الذي يوضح لنا نظرة Joinville إلى الملك لويس الذي غدا مقدساً لدى المسيحيين، ويصف لنا رأي العين مشاهده في الحملة.

ب- بهاء الدين زهير

يعد زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي بهاء الدين (٥٨١-٦٥٦هـ/١١٨٦-١٢٥٨م) من أهم الكتاب الأدباء في عصر الملك الصالح أيوب، وقد ولد بمكة ونشأ بقوص، ((اتصل بخدمة الملك الصالح أيوب فقربه وجعله من خواصّ كُتّابه، وظل حظياً عنده إلى أن مات الصالح، فانقطع زهير في داره إلى أن توفي بمصر))[٢] وقد اهتمت كتب التراث بأدبه وشخصيته، فقد جاء ذكره في وفيات الأعيان، والنجوم الزاهرة، وآداب اللغة، وروض المناظر، وغير ذلك إلا أننا نرى أن شخصيته في رواية المنصورة أساسية في الأحداث، بل إنه يصنع بعض الأحداث بنفسه، فقد جعله المؤلف موازياً لشخصية Joinville، فإذا كان الأخير مقرباً من الملك لويس، فإن بهاء الدين زهير مقرب من الملك الصالح، وهذا ثابت تاريخياً، بيد أن الكاتب يجعله محركاً للأحداث، فإن رسالة السلطان إلى لويس التاسع يكتبها بهاء الدين زهير الذي يقول: ((أيأذن مولاي في أن أقرأ له الجواب؟ تفضل يا بهاء الدين..

بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد

---

(١) Johann von, Joinville: Geschichte des hl. Ludwing, uebersetzt von Siegfried Uschner, Gruenemals, Mainz 1928.

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، جـ٣ ص٣ ص٥٢ ط. دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، بيروت، ١٩٨٤.

أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه..)) - بورك فيك يا بهاء الدين، ولا شلت يمينك، والله ما كتبت إلا ما في نفسي، فقد رددت على هذا المغرور اللعين بما يستحقه))[١].

وهذا يؤكد ما ذهبت إليه آنفاً من أن الكاتب يعتمد على وصف صورة موازية للفريقين، وربما كانت شخصية بهاء الدين زهير من الشخصيات التي لم تنم في الرواية، لأنها شخصية معدة سلفاً وحقيقية.

ولذا يقول د. حلمي القاعود: ((إن كثرة الأحداث وتتابعها لا تتيح للشخصيات النمو الفني بقدر كاف، وغالباً ما نراها شخصيات ((جاهزة)) سلفاً مع استثناءات قليلة، تتمثل في شخصية حمدان وشخصية فاطمة، ولعل السر يرجع إلى اختراعها من قبل الكاتب، على العكس من بقية الشخصيات التي جاءت عبر التاريخ، وهي تؤدي أدوارها مكتملة ناضجة))[٢].

ربما يعود ذلك إلى أن زمن الرواية لا يجاوز العام، ولذا لجأ إلى تقنية الارتجاع الفني (Flashback) حتى يبدع شخصياته المبتكرة، ففي أول الرواية ما يوحي بذلك، حيث يحكي حمدان لسيف الدين الدمشقي عن طفولته، مرتداً بذاكرته إلى تلك الأحداث الطفولية البائسة، حتى يبرر أفعال الشخصية في الأحداث الحالية والمستقبلية في الرواية، ومن هذا يدرك المتلقي أهمية الشخصيات الأدبية التاريخية في إضفاء روح العصر على الأحداث الإبداعية في الرواية، ويسبغ وجود المؤرخين

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة، ص١٤٠-١٤١.

(٢) د. حلمي القاعود: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (دراسة تطبيقية) ص٢٢٧، ط دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٠.

المعاصرين للأحداث على الرواية مصداقية لدى المتلقي، إذ إن هناك معرفة مسبقة بهذه الشخصيات التي تحولت إلى جزء من ذاكرة الوعي التاريخي لدى المواطن، ووجودها في الرواية يوجه هذا الوعي التاريخي المسبق، بحيث يتكئ عليه المبدع، محركاً بوصلة التفكير لدى المتلقي نحو الحدث المبدع في الرواية وليس الحدث المقرر مسبقاً في التاريخ.

جـ- ابن مطروح

أعطى المؤلف لابن مطروح (٥٩٢-٦٤٩هـ/١١٩٦-١٢٥١م) دوراً هامشياً في الرواية، أشبه ما يكون بالديكور بلغة المسرح، إذ اختتم المؤلف الرواية بمشهد يجمع بين الحبيبين حمدان وفاطمة، حيث يهمس حمدان في أذن فاطمة: ((أنا أصدق مشاعري التي تحبك يا فاطمة، وأصدق إحساسي بصفو الزمان ونعيم اللقاء، أما الحرب فنحن لها، وإن عادت نعد)).

وأما لويس فلنقل له -إن فكر في العودة- ما قاله شاعرنا جمال الدين بن مطروح:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق عن قؤول نصيحْ
أتيت مصراً تبتغي ملكها ... تحسب أن الأمر يا طبل ريحْ
وكل أصحابك أوردتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريحْ
خمسين ألفاً لا ترى منهم ... غير قتيل أو أسير أو جريحْ
ألهمك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريحْ
إن كان باباكم بذا راضياً ... فرب غش قد أتى من نصيحْ

وقـــل لهـــم إن أضـــمروا عـــودة لأخـــذ ثـــأر أو لقصـــد صـــحيحْ
دار ابـــن لقمـــان علـــى حالهـــا والقيد باق والطواشـــي صـــبيحْ))[١]

ونلاحظ مدى روح التهكم والسخرية في هذه القطعة الأدبية التي كـان من الممكن تصوير موقف الشعب من خلالها، فالشاعر هنا يتحـدث ممـثلاً للشعب الذي يرى في الدخيل غازياً يجب مقاومته، ثم يتهكم من الملك لويس الذي ظن أن مصر مطمع، وأن آلافاً من جنوده لقوا حتفهم بحسـن قيادتـه وحكمة رأيه!!

ثم يعرج نحو البابا ومشورته الفاسدة التي أودت بالصليبيين نحـو المهالـك، واختتم قصيدته بأن لويس إذا ما أراد عودة فدار ابن لقمان في انتظاره، وكذلك القيود، والطواشي صبيح الذي كان حارساً عليه.

ولذلك لا أدري لماذا لم يأخذ ابن مطروح دور ابن الشعب الذي يمثلـه في الحقيقة، ولماذا لم يوظف إبداعياً، لا سيما أنه كان قريباً من الأحداث.

فهو ((يحيى بن عيسى بن إبراهيم، جمال الدين بن مطـروح كـان نـاظراً بأسيوط وتوفي بالقاهرة، خدم الملك الصالح أيوب، وتنقل معه في البلاد فأقامـه الصالح ناظراً على الخزانة المصرية سنة ٦٣٩ ثم نقلـه إلى دمشـق واسـتمر في الأعمال السلطانية إلى أن مات الملك الصالح فعاد إلى مصر فأعرض عنه خلفـاء الصالح))[٢] وحتى إذا كان ابن مطروح في أثناء المعركة في دمشق، فهذا لا يمنـع

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص٢٦٧.

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام جـ٨ ص١٦٢.

من توظيفه فنياً، إذ إن مصر والشام كلتيهما تحت حكم واحد، والحدث يبدأ عند الدكتور هدارة في الشام، حيث السلطان المريض، وكذلك فقد عاد بعد موت السلطان إلى مصر، وتوحي قصيدته بمعرفة كل أسرار الحملة السابعة ونتائجها.

ومن عجب أن هذه القصيدة -بذاتها- تنوقلت في معظم الروايات التاريخية التي دارت حول موقعة المنصورة[١].

وربما كانت حدة السخرية في القصيدة ((تصويراً عن روح الشعب المصري في التهكم والسخرية والضحك في الملمات الصعبة، حتى يترابط جأشه من جديد صاداً الغزوات المتلاحقة، متهكماً من أصحابها الحمقى، ولعله يرى في السخرية سلاحاً حاداً)).

ملاحظات عامة

لعل أول ما يلفت النظر هو قلة الدراسات النقدية التي تناولت رواية المنصورة[٢] برغم أنها كتبت قبل ١٩٦٠ إذ إنها حصلت على جائزة الرواية التاريخية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام ١٩٦٠، أي أن لها الريادة في الروايات التاريخية التي عالجت موقعة المنصورة.

---

(١) انظر مثلاً: محمد سعيد العريان: شجرة الدر ص١٢٣-١٢٤؛ عبد السلام العشري: شجرة الدر ص١٣٨.

(٢) ربما لم يتناول هذه الرواية سوى الدكتور حلمي محمد القاعود في فصل تحت عنوان ((المنصورة والوجه الصليبي)) في كتابه الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، دراسة تطبيقية، في كتاب (الدكتور محمد مصطفى هدارة.. رائد الدراسات الأدبية) سلسلة رواد معاصرون جـ١. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩١؛ (الدكتور هدارة بحوث من أعماله الأدبية النقدية) بمناسبة حصوله على جائزة الأدب العربي، ط. دار رؤيات الإسكندرية، ١٩٨٨.

كذلك فإنها تخلصت من الترهل الوصفي الخطابي إلى حد كبير قياساً إلى الروايات التاريخية التي تليها زمنياً.

إلا أنها قد جانبها الصواب في بعض الأحداث التاريخية والروائية مثل إطلاق اسم ((فريدريك ملك النمسا))[١] ثم يذكر في صفحة أخرى ((فريدريك ملك ألمانيا))[٢] وهو يقصد الملك والقيصر Friedrich II فردريش الثاني ولد في ١١٩٤ بـ Ancona وتوفي في Fiorentno في ١٢٥٠ وهو ابن القيصر Heinrich هاينرش السادس، وقد قرر البابا Innocent عزله في ١٢٥٤ وظلت الحرب بين القيصر Friedrich VI والبابا Innocent قائمة حتى إن Friedrich II حاول قتل البابا في ١١٤٧ ثم قام بتوصيل المعلومات العسكرية حول الحملة السابعة إلى المعسكر المصري، وكان ابنه Konrad ملكاً للقدس وبدون موافقته لن يستطيع Ludwiq IX ((لويس التاسع)) دخول القدس، لذلك كان موقف Ludwiq حرجاً بين البابا وبين Friedrich وابنه Konrad وقد كان Fridrich يجيد ست لغات منها اللغة العربية كما يذكر Steven Runciman في كتاب قصة ((الحروب الصليبية))[٣] ((Geschichte der Kreuzzuege)) إنه كان أعجوبة لا تتكرر في قوة حكمه وشخصيته))[٤] يطلق عليه لقب ملك ألمانيا

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص٣٦.

(٢) السابق ص١٠٠-١٠١.

(٣) Steven Runciman: Geschichte der Kruzzuege. CH Beck' sche. Velagsbuchhandlung (Oscar Beck) Muenchen 1 989,P. 252,f.

(٤) Mayers grosses Tachenlexikon; Hrg lexikon Redaktion des Bibliographischen Institut, Mayers Lexikonverlag, Wien, Zurich, 1981 B. 7P. 266 u.a.

والإمبراطورية الرومانية الغربية، وكان له نفوذ كبير، وربما كان نفوذه وشخصيته هما سبب صراعه ضد البابا Innocent الذي ود أن يحتكر السلطة والمعرفة لنفسه دون سواه.

وكذلك فقد خلط المؤلف بين سيف الدين وفخر الدين في حوار استمر قرابة صفحتين[١] ربما كان ذلك خطأ مطبعياً.

كذلك نرى في صفحة أخرى جملة غير مكتملة ((كان كل شيء في معسكر المسلمين حين هبط..))؟[٢] وقد تغافل الدكتور هدارة عن دور الأزهر في خدمة هذه الموقعة ربما لم يكن مؤثراً آنذاك واكتفى بقوله: ((وازدادت حماستهم (أي العرب) حين أخذت جموعهم تتكاثر، ويغدو على الجيش كل يوم عدد من أبناء الشعب من القاهرة، حيث قرئ على الناس في الجامع الأزهر كتاب يحض على الجهاد، فأشعل الحماسة في القلوب وأسال دموع المؤمنين))[٣] ولعله عنى بذلك ما رواه المقريزي في السلوك لمعرفة دول الملوك:

((فورد في يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب فيه حض الناس على الجهاد أوله: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة: ٩/٤١]، وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمة، فقرئ على الناس فوق منبر جامع القاهرة، وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا

(١) د. محمد مصطفى هدارة: المنصورة ص١٠٩-١١٠.

(٢) السابق ص١٩٢ ولا نعلم خبر كان التي لا يمكن أن تكون من خلال سياق المعنى ((كان)) التامة.

(٣) السابق ص١٨٧.

يوصف، وارتجت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم))[١].

ولكن تبقى رواية المنصورة للأديب الدكتور محمد مصطفى هدارة فاتحة للرواية التاريخية حول هذه الحقبة المصيرية في تاريخ مصر، وتبدو الرواية واسطة عقد بين الإبداع والتأريخ.

(١) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ت٨٤٥هـ-١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ص٢٥٦.

obeikandl.com